المطلب الثاني- التَّعرِيض:

التَّعرِيضُ- لُغَةً واصطلاحاً:

التَّعْرِيضُ في **اللغة** ضِدّ التَّصريح؛ يقال: عرَّضتُ لفلان أو بفلان، إذا قُلتَ قولاً وأنت تعنيه، أي: أنْ تُخاطِب واحداً وتُريد غيره، **واصطلاحاً** (**هو أن يُطلقَ اللفظُ ويُشار به إلى معنىً آخر يُفهمُ من السياق، تستعملهُ العربُ في كلامها كثيراً، فتبلغ إرادتها بوجهٍ هو ألطفُ وأحسنُ من الكشف والتَّصريح، ويُعيبون الرَّجلَ إذا كان يُكاشف في كلِّ شيءٍ، ويقولون: لا يحسن التَّعْرِيضَ إلاَّ ثَلباً**).

من ذلك التَّعْرِيضُ في خِطبة النساء، قال-تعالى-:﴿ **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ** ﴾[البقرة:٢٣٥]، فقد جوَّز-تعالى- في خطبة النساء التَّعْرِيض، بدلاً من التَّصريح بلفظ النِّكاح، تأدُّباً وحُسْنَ اختيارٍ للألفاظ المناسبة للمقام، كأن تقول: إنِّي أريدُ التَّزويجَ... وإني أُحِبُّ المرأةَ من أمرِها كذا وكذا... وإنَّ من شأني النساء... ولَوَدِدْتُ أنَّ اللهَ يَسَّرَ لي امرأةً صالحةً... ونحو ذلك.

والفرق بين الكناية والتَّعْرِيض أنَّ **الكناية** أن تذكُر الشَّيءَ بغيرِ لفظهِ الموضوع، **والتَّعْرِيضُ** أن تذكر شيئاً تدلُّ به على شيءٍ لم تذكره؛ كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جِئتُك لأُسلِّمَ عليك، ولأنظرَ إلى وجهِكَ الكريمِ ...

فضلاً عن ذلك أنَّ **التَّعْرِيضَ** يُسمَّى بأسماء أُخر ترادفُهُ في الاصطلاح من مثل: معاريض الكلام أو الكلام المنصف أو الإشارة والرمز أو التلويح، لأنَّه يلوح منه ما يريده ويرمز إليه.

ومن أمثلة ذلك توجيه المتكلمُ الخطابَ للغيرِ والمراد خصمَه؛ للتلطف واستدراج الخصم، كما في قوله-تعالى- على لسان نبيِّهِ إبراهيم الخليل-ﷺ-:﴿ **قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ** ﴾[الأنبياء:٦٣]، فمقصدُ نبيّ الله-عليه السلام- هنا التَّعْرِيض؛ إذ أراد-عليه السلام- أن يُبيِّنَ لهم أنَّ من لا يتكلم ولا يعلم ليس بِمُستَحِقٍّ للعبادة، ولا يصح في العقل أن يُطلق عليه أنَّه إلـهٌ، فأُخرج الكلام مخرج التَّعْرِيض لهم، بما يوقعهم في الاعتراف بأنَّ الجمادات الَّتي عبدوها ليست بآلهة، لأنَّهم إذا قالوا: إنَّهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النَّطق ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟! فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تُلزمَهُ الحجَّةَ ويعترفَ بالحقِّ، فإنَّ ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته، وبذلك يُمكنُكَ من أنْ تَشْفيَ غلَّتَكَ منْ خصمِك منْ غيرِ أنْ تجعلَ له إليك سبيلاً، ودون أنْ تخدشَ وَجْهَ الأدبِ.

وعلى الرَّغم من وجود حديثٍ عن أبي هريرة-رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ-صلى الله عليه وسلم- قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ-عليه السلام- قطّ إِلَّا ثَلَاثَ كذبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ: قَوْلُهُ: (**إِنِّي سَقِيمٌ**)، وَقَوْلُهُ: (**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**)، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارة»[1]، فلا وجود لخلاف بين أهل العلم أنَّ هذا القول صدر من نبيّ اللهِ-عليه السلام- على طريقة التَّعْريض في استدراج الخصم ومُحاجته، كما لا يخفى ما ضَمَّنه هذا التَّعْرِيض من معانٍ جَمَّةٍ كلّها تؤدي إلى أنَّ التَّعْرِيض فيه من الإيجاز والاختصار ما تضيق عنه المجلدات؛ إذ صُوّر في وجهين: الأوَّل: أنَّه-عليه السلام- لم يرد بذلك نسبة الفعل إلى كبير الأصنام، وإنَّما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على رمزٍ خفيٍّ ومسلكٍ دعويٍّ في التَّعْرِيض، مع إلزام الحجة وتسفيه أحلامهم، والثَّاني: أن يقال: إنَّ كبير الأصنام غضب لَمَّا عُبد معه غيره من هذه الأصنام الصغار فكسرها، وغرضه-عليه السلام- بذلك أن يُعرِّضَ بهم في كونهم قد أشركوا في العبادة مَن هو دون الله-تعالى-، وأنَّ مَن دونه مخلوقٌ حقيرٌ من مخلوقاته، فوضع هذا الكلام موضع التَّعْرِيض، بدلالة السياق وقرائن الأحوال.

ومنه أن يُخاطبَ الشَّخص والمراد غيره، سواء كان الخطاب مع نفسه أم مع غيره، ويكثر ذلك في مخاطبة النبيّ-صلى الله عليه وسلم- والمراد غيره من أمَّته على سبيل التَّعْرِيض، كما في قوله-تعالى-:﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ [يونس:٩٤-٩٥]، فالخطاب وإن كان مُوجَّهًا إلى النَّبيّ-صلى الله عليه وسلم-، لكنَّ المراد به التَّعْرِيض لأُمَّتِهِ؛ فحاشاه-صلى الله عليه وسلم-، من الشَّك والرَّيب والشِّرك، فهذا كلُّه مَّما لا ينبغي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومما يضارع الشَّاهد السَّابق في بيان التعريض قوله-تعالى-:﴿ **وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦]، فهذا الكلام من باب التَّعْرِيض لغير الرسل؛ لأنَّ اللهَ-سُبْحَانَهُ- قد عصمهم عن الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه التَّحذير والإنذار للعباد من الشرك، لأنَّه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتَّقدير، فهو مُحْبِطٌ لعمل غيرهم من أُممهم، بطريق الأولى، وهذا مَّما لا شكَّ فيه أنَّه من التَّعْرِيض بالخصم لاستدراجه إلى الإذعان والتَّسليم والإيمان بالله الواحد الأحد.

[1] صَحِيحُ البُخَارِيّ(٣١٧٩):١٢٢٥/٣، وصَحِيحُ مُسْلِمٍ(٢٣٧١):١٨٤٠/٤.

ومن أمثلة التعريض ما جاء في قوله-تعالى-: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ ﴾[المائدة:٤٤]، فإنَّ المراد بإسلام النَّبيين هنا التَّعْريض لغيرهم، إذ إنَّ معنى(أَسْلَمُوا) هنا: اخلصوا لله-تعالى-، وهو صِفةُ مدح أُريدَ به التَّعْرِيض باليهود؛ لأنَّهم بخلاف هذه الصفة، وليس المراد هنا الإسلام الذي هو ضدّ الكُفر؛ لأنَّ الأنبياء لا يُقال فيهم: أسلَمُوا على هذا المعنى، لأنَّهم لم يكفروا قط، وإنَّما هو كقول إبراهيم-الَسَّلِيُّلا-: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة:١٣١]، وقوله-تعالى-:﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ ﴾[آل عمران:٢٠]، ونحو ذلك على التَّعرِيض، لأنَّه أُسلوبٌ من أساليب الدَّعوة إلى سبيل الموحدين، الَّذي يلوحُ بالأُفق إلى أنَّ الدُّعاة إلى الله-تعالى- يجب أن يسلكوا هذا السَّبيل النَّاجع في استدراج الخصم، وإخراجه من شُبهات الضَّلالِ إلى نُورِ التَّوحيد، ونبذِ كُلِّ ما سواه.

ولا يخفى عليك الأسلوب الرباني في تعليم العباد كيفية الدعوة إلى طريق الحقِ وسبيل الصالحين؛ قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[سبأ:٢٤-٢٧].

ومنه قوله سبحانه في سورة(يس): ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾.

ومنه قوله سبحانه في سورة (القصص): ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾، وهذا أوضحُ من أن يُشرح، وأمثاله كثير.